لقاء رابطة الأخويات في لبنان – إقليم نيابة صربا

دَيــر مَار اليَاس الرَّاس

الجمعة ٨ تمّوز ٢٠١١

كيفيَّة الحصول على نعمة التجدُّد بالرُّوح القدس

مقدِّمة

يَقول الرسول بولس: "لا تَتَشَبَّهُوا بِهَذا الدَّهر، بَل تَغَيَّرُوا بتجديد عقولكم، لِكي تُمَيِّزوا مَا هي مشيئة الله، أي ما هو صالحٌ ومَرضيٌ وكامِل" (روم ١٢: ٢).

إن مسرَّة قلب الله أن يتغيَّر الإنسان إلى الأفضل كلَّ يوم، هذا ليس فقط لأنه كفيلٌ بأن يمجِّد الله فى كماله وقداسته، وإنما فى هذا تحقيقًا لقصد الله الذى يتَّجه دائمًا لفرح قلب الإنسان وسعادته. والتغيُّر الذي يريده الله لحياتنا، والذى يسميه الرسول بولس بالتجدد، إنما هو الطريق الذي لا بديل له نحو الوصول إلى الكمال والارتقاء الذي يرجوه الله لكلِّ إنسان.

١. معنى التجديد

يعرِّف الكتاب المقدس التجديد أنه "الولادة الجديدة" (يو ٣: ٣ ويع ١: ١٨) و"الخليقة الجديدة" (٢كو ٥: ١٧ وغل ٦: ١٥ وأف ٢: ١ و٤: ٢٤)؛ و"القيامة إلى حياة جديدة" (يو ٥: ٢١ وأف ٢: ٥)؛ و"الولادة من الروح" (يو ٣: ٨)؛ و"الحياة من الموت" (رو ٦: ١٣). واستخدم اللاهوتيون غالباً كلمة «التجديد» أو "الولادة الثانية" بهذا المعنى، وهو التغيير الذي يجريه الله في النفس ونقلها من الموت الروحي إلى الحياة الروحية، فتتغيّر ميولها الطبيعية من الشر إلى القداسة. فهو تغيير خلُقي لا يقدر على عمله إلا روح الله. ويمتاز التجديد بأنه عمل الله الذي يُرجِع النفس إليه.

٢. ماهية التجديد في الكتاب المقدّس

التجديد ضروري لخلاص الخاطئ (يو ٣: ٧؛ غل ٦: ١٥؛ عب ١٢: ١٤). يحتاج الإنسان إليه لأنه خاطئ، ولا يستطيع ما دام في تلك الحال أن يقبل كفَّارة المسيح بقلبٍ صادق، ولا أن يستفيد منها.

التجديد تغيير تنشأ منه حياة جديدة (يو ٣:٣ ؛ أف ٥: ١٤). فالخاطئ في حالته الطبيعية ميت بالخطيئة. وكما أن الميت بالجسد لا يرى ولا يحس ولا يقدر أن يعمل، ولا يتأثر بما يؤثر في الحي، كذلك الخطأة هم موتى بالخطيئة، عاجزون عن إدراك الأمور الروحيَّة وما يختصُّ بالله وبالخلاص وبالواجبات الروحيَّة، ولا يُسَرُّون بها، فيحتاجون لحياة روحية جديدة تنظر نظرةً جديدة لله والمسيح والإنجيل والقداسة.

التجديد هو تغيير القلب والأخلاق، فتتغير صفات الإنسان الأصليَّة المتسلِّطة فيه، لينال قلباً جديداً (حز ١١: ١٩؛ مت ١٢: ٣٣-٣٥؛ ١٥: ١٩). والقلب في الكتاب المقدَّس هو ما يفتكر ويشعر ويريد ويعمل، فهو النفس أو الذات. وعليه يكون القلب الجديد ذاتاً جديدة، ويكون التجديد هو ولادة الإنسان ولادةً جديدة إذ تأخذ نفسه حياة جديدة وطبيعة جديدة، فكما جعل الله طبيعة آدم مقدسة عندما خلقه، هكذا يخلق في من يختاره للخلاص طبيعة جديدة مقدسة، حتى تتغيَّر ميوله من جهةٍ إلى أخرى.

التجديد هو التغيير الكليّ للنفس (روم ٨: ٢؛ أف ٢: ٥-١٠؛ ٣: ٢٣-٢٤؛ ٤: ٢٥-٣٢؛ قول ٣: ٥-١٧). وحسب التعليم الإنجيلي تتجدَّد النفس كلّها، بقواها العقلية والحسية وإرادتها. ويبرهن ذلك أن النفس جوهر واحد وقُواها غير منفصلةٍ عن بعضها، فلا يكون بعضها صالحاً والآخر رديئاً، أو البعض يخلُص والآخر يهلك. ولما كان التجديد يشمل كلّ قِوى النفس، قيل إن العقل يستنير والإحساسات تتغيَّر والإرادة تتجدَّد، ويحصل المتجدِّد على المعرفة الصحيحة والشعور الصالح والإرادة الخاضعة لأوامر الله، فيصير كالشجرة الجيدة التي تعطي ثماراً جيدة، أي أن كلّ الشجرة تصير جيِّدة لا جزء منها. وكذلك تكون النفس في وحدتها، موضوع فعل الروح القدس في التجديد.

٣. نعمة التجديد

التجديد يتمّ عندما يفعله الروح دون فهم الإنسان (يو ٣: ٥؛ ٦: ٦٣). فالروح القدس حين يجدّد النفس يتمِّم ذلك بعمل قوَّته الفائقة. وبهذا المعنى يتميَّز التجديد عن الاقتناع العقلي في أنه إيجاد حياة جديدة، وإقامة الميت إلى الحياة. وهو عمل سريّ لا يُعرَف ولا يُدرَك بشعور المتجدد، بل بما ينتج عنه فقط من التغيير في طبيعته وأفكاره وأعماله، كقول المسيح "الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها، ولكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من وُلد من الروح" (يو ٣: ٨).

التجديد هو عمل الروح مباشرةً بلا واسطةٍ إنسانية، ولكنه يتم بواسطة كلمة حقّ الإنجيل. فإذا اعتبرنا التجديد خليقة جديدة وولادة جديدة روحيَّة فهو يتمّ بفعل الروح القدس مباشرةً في النفس كما في تجديد الأطفال. ولكن إذا اعتبرنا التجديد جزءاً من رجوع الإنسان إلى الله، فهو يتم في البالغين دائماً بواسطة مرافقة كلمة الحقّ التي تقنع الإنسان وتحثّه على إتمام ذلك. والواسطة الوحيدة التي في طاقة الإنسان أن يستعملها لأجل نوال التجديد هي قبول الحقّ. على أننا لا نجزم ونقول بعدم إمكانية التجديد بدون معرفة كلمة حق الإنجيل، لأن التجديد يتمّ في

الأطفال، وإن شاءت الإرادة الإلهية يُحتمل أن يتمّ كذلك في الوثنيين المسترشَدين من الروح للاتكال على مجرد الرحمة الإلهية، وباستعمال ما عندهم من النور استعمالاً حسناً. وقد فصل اللاهوتيون في هذه المسألة بقولهم إن الروح القدس هو فاعل التجديد، والحقّ هو الواسطة التي يستعملها الروح ليكمل مقصده. غير أن الحقّ ليس له فعلٌ في ذلك إلا باستعمال الروح إياه بقوته الفائقة (أف ٦: ١٧؛ يع ١: ١٨؛ ١بط ١: ٢٣).

التجديد هو عمل الله، فالله هو المجدِّد والنفس هي المجدَّدة. وتظهر في التجديد قوّة الله القادرة على كل شيء، فهو فعَّال دائماً، لا بمعنى أنه يُجبِر الإرادة، بل بمعنى أنه يقنعها ويجذبها حتى توافق قصده من تلقاء نفسها بالتسليم الاختياري (يو ١: ١٣؛ ٣: ٥؛ أف ١: ١٩-٢٠؛ ٢: ١٠؛ ١بط ١: ٣).

وبناءً على ما سبق تتَّضح حقيقة التجديد، فنقول:

١. ليس التجديد تغييراً في جوهر النفس ولا في بنيتها الأصلية.
٢. ليس التجديد من أعمال النفس، بل عمل الله.
٣. ليس التجديد تغييراً في قوّة واحدة من قوى النفس دون غيرها، لأن العقل لا يتجدَّد دون الحواس الباطنة، ولا الإرادة دونهما، لأن حياتنا الروحية واحدة.
٤. ليس التجديد مجرّد استنارة، لأنه حياة جديدة. والاستنارة واحدةٌ من نتائج التجديد، إذ تستنير النفس بنور الحق وتقدر على رؤيته بكماله وجماله ومجده.

٤. التجديد بالروح القدس في المعموديّة

ألقى القدّيس غريغوريوس النيصي[١] في يوم عيد الدنح عظةً بعنوان: "سرّ المعموديَّة ومياه التجديد". إستغل القدّيس فرصة عيد الدنح ليشرح كيفيّة حصولنا على نعمة التجديد الروحي من خلال المعمودية.

قال القديس غريغوريوس: "لا يمكننا، كما ظَنَّ نيقوديموس بعدم حكمة، أن نحوِّل الشيخ الكبير مرة أخرى إلى طفل، ولا يمكننا إعادة الشيخ الذي قد شاخ وشاب شعره إلى نضارة الشباب إذا أعدناه مرة أخرى إلى رحمِ أمه. ولكن يمكننا من خلال النعمة الإلهية إعادة مَنْ يحمل جراحات الخطيئة وشاخ في العادات الشريرة إلى براءة الطفل"[٢].

[١] غريغوريوس النيصي هو أحد آباء الكنيسة العظام. ولد حوالي سنة ٣٢٩ م. من أبوين مسيحيَّين تقيَّين، وكان من بين إخوته القدّيس باسيليوس الكبير.

[٢] GRÉGOIRE DE NYSSE, *Pour la fête des lumières* (PG 46, 480).

يعمل الروح القدس في الماء ويعطي من خلالها الولادة الجديدة للإنسان. لكنّ المياه لا تهب هذه العطيّة من ذاتها بل بفعل حلول الروح القدس الذي يحلّ فيها. فالروح يُبارك الجسد الذي يعتمد والماء الذي يُعتَمَد به. لذا يجب ألاّ نستخفّ بجرن مياه المعموديّة ظانّين أنّه شيءٌ عاديّ ومظهر خارجيّ طبيعيّ. قبل التقديس لم يكن للمياه قيمة، ولكن بعد تقديس الروح القدس يصبح مفعولها مختلف جداً. وكذلك بالنسبة إلى العديد من الأشياء التي تبدو لنا من الخارج كأشياء لا قيمة لها، ولكن الأعمال التي تُتمّها عظيمة.

يعطي القديس غريغوريوس أمثلة كتابية توضح سرّ الله الذي يعمل بفعاليَّة فائقة في العناصر التي لا قيمة لها بحدّ ذاتها، ولكن حضوره يقدّسها. فعلى الرغم من أن كلّ هذه الأشياء هي مادة بلا روح وإحساس فلقد تحوَّلت إلى أدواتٍ لعمل العجائب العظيمة التي صُنِعَت بها عندما قَبِلَت قوّة من الله. وبنفس المنطق فالمياه أيضاً بالرغم من كونها مجرد ماء فهي تُجدِد الإنسان للميلاد الروحي عندما تُقدَّس بالنعمة التي من فوق.

إنَّ سلطان الله وأعماله غير مُدركة ولا يمكن وضعها في إطار القواعد المعروفة، فهو يعمل ما يشاء خافياً عنَّا دقائق الأمور في عمله. لأجل ذلك عندما تأمل داود بفكره روعة الخليقة، وامتلأت نفسه من الاندهاش والإعجاب، تكلَّم بالآية التي يرتلها الجميع: "ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صَنعت" (مز ١٠٤: ٢٤) فقد أدرك المرتل عظمة حكمة الله وإن لم يستطع أن يفهمها.

من الأمثال التي أعطاها أيضاً القدّيس غريغوريوس: التقدمة المعجزية للنبيّ التشبيّ إيليا التي تفوق فهم البشر، فما هي إلا إشارة عمليَّة للإيمان بالآب والابن والروح القدس وبالفداء أيضاً. لأنَّ العبرانيين عندما تركوا إيمان آبائهم وسقطوا في خطيئة عبادة الأوثان، وضلَّ ملِكهم آحاب بعبادة الأصنام مع إيزابل امرأته الشرِّيرة، التي كانت تحثّه على الكُفر، جاء النبي إيليا ممتلئاً من نعمة الروح للقاء آحاب، وتحدَّى كهنة البعل في تحدٍّ عظيم وعجيب أمام الملك وكل الشعب.

وإذ أعطاهم مهمَّة تقديم العجل دون نار أظهرهم بشكل سخيف ومخزٍ إذ كانوا يصلُّون ويصرخون باطلاً لآلهة باطلة. وأخيراً حقَّق إيليا هدفه عندما صرخ إلى الإله الحقيقي بالرغم من الصعوبات التي أضافها هو نفسه إلى مهمته، لأنه لم يستدعِ النار من السماء على خشب جاف فحسب، بل أمر وطلب من الحاضرين أن يحضروا الكثير من الماء. وبعد أن سكَب الماء ثلاث مرات على قِطَع الخشب، أشعلت صلاته النار في الماء، مُظهِراً بجلاء عظيم قوَّة إلهه من خلال تلك المادتين المتناقضتين –الماء والنار–اللتين عملتا معاً. فَمِن خلال هذه الذبيحة المعجزية، أظهر لنا إيليا بوضوح طقس المعمودية السريّ الذي تأسس فيما بعد. لأن النار اشتعلت في ذبيحةٍ سكِب عليها الماء ثلاث مرات، مظهِراً بوضوح أنه حيث يوجد الماء السريّ يوجد الروح المشتعِل الدافئ والناري الذي يحرِق الأشرار وينير للمؤمنين.

٥. نتائج التجديد

١. تغيير صفات النفس وإصلاح ميولها، وإنارة العقل، وحثّ الإرادة على الطاعة وتمكينها من ذلك (يو ٧: ١٧؛ أع ١٦: ١٤؛ أف ١: ١٨). فالنفس المتجدِّدة ترجع إلى الله بالتوبة والإيمان، وعند ذلك تتبرَّر، فتعيش عيشة جديدة وتتقدَّس أكثر فأكثر إلى أن تُقبَل أخيراً في أمجاد الحياة السماوية بعد الموت وتكميل تقديسها.

٢. من أهم نتائج التجديد اتحاد النفس مع المسيح بحياة روحيَّة، فتقترن حياة المسيح بحياة النفس المتجدِّدة، ويصبح المسيح والنفس المتجدِّدة واحداً في حياتهما الروحيَّة. وقد اتضح هذا الاتحاد السريّ بين المسيح وشعبه المتجدِّد بأقوال مختلفة في الأسفار المقدسة، فشبَّهه الرسول بالعلاقة التي بين الأساس والمؤسَّس عليه (أف ٢: ٢٠-٢٢؛ قول ٢: ٧) وباتّحاد الزوجين المؤمنَين (٢ كور ١١: ٢؛ أف ٥: ٣١-٣٢؛ رؤ ١٩: ٧؛ ٢٢: ١٧) وباتّحاد الأغصان بالكرمة (يو ١٥: ١-١٠) وباتّحاد أعضاء الجسد بالرأس (١كور ٦: ١٥، ١٩؛ ١٢:١٢؛ أف ١: ٢٢-٢٣؛ ٤: ١٥، ١٦؛ ٥: ٢٩-٣٠) وباتّحاد الجنس البشري بآدم أصل حياته الجسدية (روم ٥: ١٢-٢١؛ ١كور ١٥: ٢٢، ٤٥، ٤٩). وقيل صريحاً إن المؤمن الحقيقيّ هو في المسيح (يو ١٤: ٢٠؛ روم ٦: ١١ ، ٨: ١؛ ٢كور ٥: ١٧؛ أف ٢: ١٣) وإن المسيح هو في المؤمن (يو ١٤: ٢٠؛ روم ٨: ٩؛ غل ٢: ٢٠) وإن الآب والابن يسكنان في المؤمن (يو ١٤: ٢٣؛ أف ٣: ١٧؛ ١يو ٤: ١٦) وإن للمؤمن حياةً باتّحاده مع المسيح كما للمسيح حياةٌ باتّحاده مع الآب (يو ٦: ٥٣، ٥٦، ٥٧؛ ١كور ١٦: ١٠، ١٧؛ ١يو ١: ٣) وإن كلَّ المؤمنين واحد في المسيح (يو ١٧: ٢١-٢٣) وإن المؤمن قد اشترك في الطبيعة الإلهية، ليس بمعنى أن جوهر الناسوت قد تغيَّر فصار جوهر اللاهوت، بل بمعنى أن المسيح تنازل ليسكن في قلب المؤمن بروحه (٢ بط ١: ٤) وإن المؤمن مسكنٌ لروح الله (روم ٨: ٩؛ ١كور ٦: ١٧، ١٩). فالمسيح بمقتضى هذا التعليم يحلّ بروحه في القلب المتجدِّد، ويتمّ بذلك اشتراك حياة المؤمن في حياة المسيح. وليس لهذا الاتحاد السريّ نهاية، فهو يزيد لذة وتأثيراً وقوة إلى أن يبلغ الكمال في الحياة السماويَّة، وهو من أول نتائج التجديد وأهمهما، بل هو التجديد ذاته، بمعنى أن التجديد يتم به.

٣. الإنسان الجديد: يجدّد الروح القدس الإنسان بكامله: حواس جديدة: نظر جديد "قُم أيّها النائم واستيقظ من بين الأموات فيضيء لك المسيح" (أف ٥: ١٤)؛ سَمَع جديد "لتحلَّ فيكم كلمةُ المسيح بملء غناها" (قول ٣: ١٦)؛ ذوق جديد "تذوّقوا الأمور التي في العلى" (قول ٣: ١)؛ شمّ جديد "أسلكوا في المحبَّة كما المسيح أيضاً أحبّنا، فبذل نفسه عنّا قرباناً وذبيحة لله، طيباً ذكيّ الرائحة" (أف ٥: ٢). أعضاء جديدة: يدان جديدتان "من كان يسرِق فليكفّ عن السرقة، بل بالأحرى فليتعب عاملاً بيديه ما هو صالح، حتّى يقدر أن يعطي المحتاج" (أف ٤: ٢٨)؛ اللسان الجديد: "لا تخرجنَّ من فمكم أيُّ كلمةٍ خبيثة، بل عند الحاجة كلّ كلمةٍ صالحة للبنيان، لتعطي نعمةً للسَّامعين" (أف ٤: ٢٩)؛ القلب الجديد: "وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل من أحشائكم روحاً جديداً وأنزع من لحمكم القلب الحجر وأعطيكم قلباً من لحم"؛ الذهنية جديدة "لا تتشبّهوا بهذا الدهر، بل تغيّروا بتجديد أذهانكم،

لكي تميّزوا ما هي مشيئة الله، أي ما هو صالح ومرضيّ وكامل" (روم ١٢: ٢). القِوى الداخليَّة الجديدة: الضمير الجديد: "ناشدتكَ...لتوصي بعضاً من الناس ألاّ يعلّموا تعليماً مخالفاً، ولا يصغوا إلى خرافاتٍ وأنساب لا آخِرَ لها، تثيرُ المجادلات أكثر مما تخدم تدبير الله في الإيمان. أمّا غاية هذه الوصيَّة فإنّما هي المحبّة بقلبٍ طاهر، وضميرٍ صالح، وإيمانٍ لا رياء فيه" (١ طيم ١: ٣-٥). الأعمال الجديدة: "أنتم الذين كنتم من قبل غرباء وأعداء بأفكاركم وأعمالكم الشرّيرة، قد صالحكم الآن بجسد ابنه البشريّ أي بموته، ليقيمكم في حضرته قدّيسين، بلا عيبٍ ولا لوم" (قول ١: ٢١).

خاتمة

التجدد هو دعوةٌ من الله للسلوك في طريق الملكوت بأمانةٍ وإخلاص، ورغبةٌ من الإنسان للحياة حسب حقّ الإنجيل وما يضمَن له العيش في سعادةٍ وفرحٍ كُلَّ حين. لكنَّ التجدُّد لا يعني إلغاء فكر الإنسان أو إرغامه على ترك حياةٍ وَجَد فيها اللذَّة والرَّفاهيَّة، بل هو دعوةٌ للحياة في برٍّ وسلامٍ للوصول إلى "مِلءِ قَامَة المسيح" (أف ٤: ١٣). هذا التجدُّد لا يمنع الإنسان من السعي بما يجعله قادراً على الوصول لما يبتغيه وينالَه في الحياة، لكنَّه يساعده على النجاة من عواقب تصرّفه. لذا، فالتجدُّد سلوكٌ دائمٌ ومستمرّ في طريق الوصول إلى الهدف، ويحتاج لتدرُّجٍ مستمرّ بُغية نجاحه والانتفاع بثماره. وإنّ الروح القُدُس هو الذي يتولَّى مهمَّة التدرُّج في طريق التجدُّد وبدونه لا يمكن أن يكون هناك تجديد حسب إرادة الله.

يحتاج التجدُّد لإرادةٍ قويَّة ورغبةٍ دائمةً في اتّباع المسيح والاقتداء به، لأنّه الطريق للنموّ والبقاء تحت ظلّ معرفة الله ونعمته في كلّ حين. التجدُّد هو الطريق لمعرفة أسرار الروح القدس والامتلاء من النعمة والفرح الحقيقيّ الدائم. التجدُّد ينقلني من عالم الظلمة والفساد إلى انفتاح القلب دائماً نحو كلّ ما هو مقدَّسٌ في الحقّ ومَرضيٌّ لدى الربّ. بالتجدد يقترب الإنسان من قلب الله ومعرفة المسيح وبركة وقيادة الروح القدس كلَّ حين، كما أن الابتعاد عن التجدُّد قبول لفكر الشيطان وتدبيره. التجدُّد مِن قِبَلِ الربّ عملٌ لا يعطِّله شيء وإن بدا في نظر الجميع مستحيلاً، ومتى تجدَّد الإنسان حسب إرادة الله يستطيع أن يسلك بروح ما يقوله المزمور: "الذي يُشْبِعُ بالخير عمرَكِ فيتجدَّدَ مثل النسر شبابكِ" (مز ١٠٣ : ٥). التجدُّد يعطي قوَّةً واستنارةً وسلام، والنَّفس غير المستنيرة هي نفسٌ تحوَّلت إلى إنجيلٍ آخر وارتضت أن تخضع لعبوديَّة سيّدٍ شرّير إذ صارَ لها إلهًا آخر في الحياة.